الإنسَان حَيوَان ناطِق

هذا التعريف للإنسان، شرح لحقيقته التى يتألف منها، فهو حيوان تمور فيه الحياة، وهو ناطق يقبل العلم وصنعه الكتابة، فليس يشركه فى هذين الجزأين خلق من خلق الله، فهو متفرد بالحيوانية، مضمومًا إليها أنه قابل للعلم وصنعة الكتابة، وهو بهذا مع الحيوان فى أنه جامع للغذاء، مدَّخر له، حريص على حياته، قادر على أن يقى نفسه الحرَّ والبرد، والهوام والحشرات والوحوش والسباع، وهو فوق ذلك قادر على أن يصنع من الالات ما يسخر به لخدمته النامى وغير النامى، والحيوان وغيره من خَلق الله، وما أصدق فرانكلين فى تعريفه الإنسان بأنه حيوان صانع للآلات، ومن هذه الالات بلا ريب الات الصيد.

وكما أعطيناك صورة واضحة أو أقرب ما تكون إلى الوضوح عن الحيوان، يجمل بنا أن نعطيك صورة عن الإنسان الذى كرَّمه الله وحمله فى البر والبحر ورزقه من الطيبات وفضّله على كثير من خلقه، فنقول وبالله نتأيد، وعليه التكلان.

كيف نشأ:

يختلف أهل العلم حول نشأة الإنسان بين جانح لافتراض، وخاضع لاعتقاد، ولكلّ وجهةٌ هو موليها وبرهان هو مستظهر به.

الافتراضيون:

إن الجانحين إلى الافتراض يتخذون لهم أئمة فى ذروتهم دارون ونيتشه فى قولهم: «إن الإنسان قنطرة بين القرد والسوبرمان[١]».

وفى هذا يقول الأستاذ العقاد: وكاد يمزح من يقول هذه الكلمة، وإن لم يقصد إلى المزاح. فإن القنطرة التى قصاراها أن تنقل الإنسان من قرد إلى سوبرمان لا توجد ولا يمكن أن توجد: فتلك قنطرة لا يبنيها القرد، ولا يبنيها السوبرمان ولا تبنى نفسها بيديها، ولا تبنيها الطبيعة التى قد تخطو من حالق إلى الهاوية، وقد تخطو من الهاوية يمنة ويسرة إلى غير وجهة.

إنما الأحجى أن يقال إن الإنسان قنطرة من الأرض إلى السماء يبنيها الله تعالى: قنطرة قرارها أسفل سافلين وذروتها أعلى عليين، معراج من التراب المجبول إلى أفق الأرواح والعقول. ﴿يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحًا فملاقيه﴾.

ونحن نقول: ومن حجة الافتراضيين من أمثال دارون ونيتشه: الرائدة الدودية التى لا حاجة بالإنسان إليها، فيما ظهر لعلماء التشريح حتى الآن، وكذلك الشبه الواضح بين بعض فصائل القردة وبعض بنى الإنسان فى بعض جوانب الأرض.

وأخوف ما يخافه الحراص على كرامة العلم أن تكون لعصبيات الأجناس مداخل إلى أفكار بعض أولئك العلماء وهم يتناولون بالحديث نظرية الترقى هذه فهنا تكون الطامة الكبرى فى خضوع العلم للأهواء والعصبيات، إذ

(١) السوبرمان: وصف للعبقرى الذى يستعلى على سواد الناس، وأول من استعمل الكلمة «جيته» ليقلده لألمانى

ليس فى الدنيا شىء أخطر على الحقيقة من الأهواء والعصبيات.

ووجه الخوف فى ذلك أنه إذا كان للجنس الأبيض أن يستصحب فى تقرير نظرية الترقى هذه شكل إنسان زنجى لأنه يرى شبهًا بين صورته وصورة القرد، فإن من حق الناقضين لهذا الفرض أن يستصحبوا صورة الشعر الكثيف الذى يغطى جسوم القردة وجسوم بعض القائلين بهذه النظرية. فإنه إذا كان شكل الوجه يصلح برهانًا على سلامة النظرية القائلة بالترقى، فإن كثافة الشعر تصلح برهانًا على سلامة نظرية غيرهم.

فالترقى عن قرد هنا، هو الترقى عن قرد هناك. وليس يخفى أنه إذا قامت إحدى النظريتين فى مواجهة الأخرى فقد تعارضتا فتساقطتا، كما يقضى بذلك فى موازين المنطق البديهيات وهكذا يتراءى للناظر المتدبر أمران:

أحدهما: أنه لا ثمرة تترتب على هذا الفرض الموغل فى بيداء الخيال.

وثانيهما: أنه فرض لا ينبغى أن يشرف به أبيض، ولا أن يخجل منه أسود أو ملون، من حيث كنا جميعًا - بيضًا وسودًا وملونين - فى نظر هؤلاء الجانحين إلى الافتراض، مترقين عن حيوان.

أهل الدين:

وإن الخاضعين للعقائد الذين يتخذون من الديانات الكتابية منهاجًا، ومن أنبياء الله ورسله هداةً وأئمة، ليؤمنون بأن الإنسان خلقٌ قائم بذاته، وأن العناية الإلهية أرادت هذا الإنسان - بما جبل عليه من صفات، رشدًا أو غيًا، وطاعة أو معصية - خليفة فى الأرض لعمارتها، على ما يقرر ذلك القرآن الذى أنزله الله بالحق مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه: ﴿وإذ

قال ربُّك للملائكة إنى جاعلٌ فى الأرض خليفةً قالوا أتجعل فيها من يفُسد ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدِّس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون﴾.

فهذه الآية - مع ما يجرى معها فى كتاب الله من ايات - تقرِّر فى صراحة لا تحتملِ التأويل أن الأنسان خُلق ابتداءً دون أن يترقى عن حيوان.

ومما يجرى بجرى هذه الآية الكريمة - فى تقرير أن الإنسان خلقٌ قائم بذاته - قول الله جل ثناؤه: ﴿لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم﴾، فهذه الآية تدلُّ على أن الخالق جلَّ ثناؤه قد خلق الإنسان فى صورته ابتداء، لأن هذه الصورة هى التى يصلح لها هذا التعبير (أحسن تقويم).

ولعل من أحسن ما يقال فى هذا المقام ما ذكره الأستاذ العلامة أحمد زكى[1] حيث قال:

إن مشكلة الحياة الأولى، هى مشكلة العيش، وهى مشكلة الإنسان والحيوان، والحيوان لا يعلم عن السماء شيئًا، وما كان له. فإن قوامه غير قوام الإنسان ، إذ أن قوام الإنسان رأسى، وقوام الحيوان أُفقى، فعين الحيوان تتجه طبعًا إلى أسفل، إلى الأرض ، كما ترى ذلك فى البقر وفى الخيل. وقلَّ من الحيوان من يستطيع أن يتجه ببصره إلى السماء، وليس ينقصه من خير العيش، أنه لم يستطع أن يتجه ببصره إلى السماء.

حتى الإنسان - فى قوامه الرأسىّ المعتدل - إذا ألقى ببصره ألقى به إلقاء أُفقيًّا، مع أن من السهل عليه أن يحنى رأسه إلى الأرض، بمعونة عنقه،

---

(١) مع الله فى السماء.

إذ ينحنى تسعين درجة فيرى بذلك ما عند قدمه. ويسهل عليه أن يرفع رأسه إلى أعلى، إلى السماء، فيرفعه بمعونة عنقه، إذ ينثنى أربعين درجة أو خمسين أو فوق ذلك دون أن يُحس ألماً فى عنقه.

فالذى صمم جسم الحيوان وركّب هيكله، كأنه لم يُرِدِ من هذا التصميم أن يتمكن الحيوان من النظر إلى السماء، لأسباب، من أظهرها أنه - مع عقله العاجز - لا يستفيد من هذا النظر شيئًا.

وعلى غير هذا الطراز، صمم جسم الإنسان وركّب هيكله. ذلك أن الإنسان عملٌ واعٍ كثير الوعى، قادر كبير القدرة، فهو يستفيد من النظر إلى السماء أكبر استفادة، ويلقى فى سبيل هذا النظر بعض المشقة، ولكنها مشقة تهون فى هذه السبيل التى هو فيها.

علم بلا أوهام:

وربما ظنّ بعض ناشئينا وأهل المعرفة فينا أن التنبُّه إلى خصائص القردة وحسن استعدادها وشدة قبولها للتأديب، من الأمور التى اختص بالكشف عنها لعلماء الافتراضيون فى العصور المتأخرة، ولكن ذلك خطأ كبير، فإن أسلافنا عرفوا من ذلك شيئًا كثيرًا، بيد أنهم لم يستأسروا للتخيلات، كما استأسر لها الذين لا يبالون الإعراض عما أنزل الله من كتاب فإذا هم يضربون فى متاهه بلا أعلام ويخبطون فى مجاهل بلا حدود.

إن أرض الله تعالى - على سعتها - لم يبق فيها جانب مجهول، والضاربون فى كل أرجائها - على مخاطراتهم وهيامهم بالحديث عن كل عجيب - لم يؤثر عنهم أنهم رأوا مخلوقاً من المخلوقات أو فصيله من الحيوانات فى آخر المراحل التى تنتهى إليها سلسلة الحيوان، لتبدأ منها سلسلة الإنسان.

فإن لم يؤثر ذلك عن أحد - مع الكشف عن كل مجهول فى أرض الله - فذلك برهان، أى برهان، على أن هذه النظرية مُغرقة فى الوهم وموغلة فى الافتراض، وإلا فإن عالماً لا يتصور أن ترقى الإنسان عن حيوان يجىء دفعة واحدة فى لحظة واحدة من ليل أو نهار، إذ لا بد من أمد طويل تتهيأ فيه أجهزة الحيوان لكى تصبح صالحة لتكون أجهزة إنسان. إن هذا مما تقضى به بدائهُ العقول.

قلنا: إن من الخطأ الظنَّ بأن العلماء فى العصور المتأخرة هم الذين كشفوا عن ذكاء القردة فعرفوا من ذلك ما دلهم على قوة قبولها للتأديب، وذكرنا أن الأسلاف سبقوا إلى ذلك سبقًا بعيدًا، بدليل يتمثل لمن يرتاده فى قصص كثيرة وأخبار مختلفة:

منها ما روى ابن عدى فى «الكامل» عن أحمد بن طاهر قال: رأيت بالرملة قردًا يصوغ، فإذا أراد أن ينفخ أشار إلى رجل ينفخ له.

ومن ذلك ما روى العلامة المصرى (الدميرى)[1] من قوله: إن القرد شبيه بالإنسان فى غالب أحواله، لأنه يضحك ويطرب ويلذّ ويتناول الشىء بيده، وله أصابع مفصلة إلى أنامل وأظافر، وهو يقبل التلقين والتعليم ويأنس بالناس وربما مشى على رجلين حينًا من الزمان يسيرًا، وإذا سقط فى الماء غرق كالآدمى الذى لا يحسن السباحة، ويأخذ نفسه بالزواج والغيرة على الإناث وهما خصلتان من مفاخر الإنسان.

ومن ذلك أن ملك النوبة أهدى إلى الخليفة المتوكل قردًا خياطاً وآخر صائغًا، وأن أهل اليمن يعلّمون القردة القيام بحوائجهم، حتى إن القصاب والبقال يعلّم القرد حفظ الدكان حتى يعود، وربما علّموه السرقة فسرق.

---

(١) «حياة الحيوان».

وحول ذكاء القردة وقوة إدراكها روى الإمام أحمد عن أبى هريرة - رضى الله تعالى عنه - أن النبى ﷺ قال: «إن رجلًا حمل معه فى سفينة خمرًا ليبيعه - وكان معه قرد - فكان الرجل إذا باع الخمر، شأبه بالماء ثم باعه. فأخذ القرد الكيس فصعد به فوق الدقل[1] فجعل يطرح دينارًا فى البحر ودينارًا فى السفينة حتى قسَّمه».

وكذلك روى البيهقى عن أبى هريرة أيضًا أن النبى ﷺ قال: «لا تشوبوا اللبن بالماء فإن رجلًا فيمن كان قبلكم كان يبيع اللبن ويشوبه بالماء، فاشترى قردًا وركب البحر حتى إذا لجج فيه ألهم الله القرد صرة الدنانير فأخذها وصعد الدقل ففتح الصرة - وصاحبها ينظر إليه - فأخذ دينارًا فرمى به فى البحر، ودينارًا فى السفينة حتى قسَّم الصرة نصفين، فألقى ثمن الماء فى البحر وثمن اللبن فى السفينة».

ولا يُستعصى على المتأمل أن يسيغ الجمع بين الروايتين، وإحداهما تذكر اللبن وهو حلال، والأخرى تذكر الخمر وهو حرام، والحرام لا حرمة له، ودلك أن الغش حقير عند كل ذى مروءة، فهو حرام، ولو كان غشًا فى حرام، وهذا أقصى ما يمكن أن يبلغه التحذير من الغش فى باب البيان.

أين نشأ الإنسان؟

عرفت أن الخاضعين لأحكام الله فى الديانات الكتابية يؤمنون بأن الإنسان خلق قائم بذاته، وأن العناية الإلهية أرادته لعمارة الأرض، على ما تقرره الآية الكريمة من سورة البقرة ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدًا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين

(١) الدقل: جذيبة طويله تشد فى وسط السفينة يمد عليها الشراع، وتسميه البحرية (الصارى)

فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾.

وأهل التأويل يختلفون فى الجنة المرادة فى هذه الآية: هل هى جنة الخلد أو هى بستان فى الأرض؟

فمن هؤلاء من ذهب إلى أنها جنة الخلد التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار، محتجين لمذهبهم بظاهر القرآن، ثم بما ذكره ابن القيم عن أبى موسى: أن الله تعالى لما أخرج ادم من الجنة زوده من ثمارها وعلمه صنعة كل شىء، فثماركم هذه من ثمار الجنة، غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير.

ومنهم من ذهب إلى أن الجنة ليست جنة الخلد ولكنها بستان فى الأرض، حاملين الإهباط فى الآية الشريفة على الانتقال من بقعة إلى بقعة.

وخلاصة ما ذكروه تأييدًا لرأيهم الذى ذهبوا إليه يتلخص فيما يلى:

أن الله تعالى أخبر على لسان جميع رسله أن جنة الخلد إنما يكون الدخول إليها يوم القيامة، ولما يجىء زمن دخولها.

وقد وصف الله تعالى جنة الخلد فى كتابه العزيز بصفاتها. ومحال أن يصف الله تعالى شيئًا ثم يكون على غير الصفة التى وصفه بها، وقد وصف ربنا الجنة التى أعدت للمتقين، بأنها دار المقامة فمن دخلها أقام بها. وآدم لم يقم فى الجنة التى أدخلها. ثم وصفها بأنها جنة الخلد. وادم لم يخلد فيها. ووصفها بأنها دار ثواب وجزاء لا دار تكليف وأمر ونهى، وقد كلف الله فيها آدم وزوجته. ووصفها بأنها دار سلامة مطلقة، لا دار ابتلاء وامتحان، وقد ابتلى فيها آدم أعظم الابتلاء. وسماها تعالى دار السلام، ولم يسلم فيها الأبوان،

كما سماها دار القرار، ولم يستقرا فيها. وقال فى داخليها «وما هم منها بمخرجين»، وقد أُخرجا منها. وأخبر سبحانه أنه لا لغو فيها ولا تأثيم. وقد سمع فيها أبونا ادم لغو إبليس وإثمه.

فإذا اجتمع ذلك كله مضمومًا بعضه إلى بعض وتأمله المنصف الذى لاح له علم الدليل فربأ بنفسه عن حضيض التقليد، تبين له على غاية الجلاء وجه الصواب فى أن الجنة التى أوطنها أبوانا، ليست جنة الخلد ولكنها بستان فى الأرض.

قال العالمان الجليلان أبو مسلم الأصفهانى وأبو القاسم البلخى: ومعنى الإهباط الانتقال من بقعة إلى بقعة، كما عبر عن ذلك القرآن: ﴿اهبطوا مصرًا فإنَّ لكم ما سألتم﴾.

ونحن نرى أن فى التعبير بالهبوط معنى جليلًا ينبغى التنبه له، وليس هو الانتقال من بقعة إلى بقعة.

وبيان ذلك أن هذا البستان الذى أوطنه أبوانا فى الأرض كان بموضع مرتفع فالتعبير بالهبوط على هذا أشدُّ وضوحًا وأبين فائدة.

فأما أنه أشد وضوحًا فلأن الهبوط من ربوة إلى منخفض، هبوط من أعلى إلى أسفل، فالكلمة مستعملة فى موضعها من الحقيقة.

وأما أنه أبينُ فائدة فلأن البستان - الجنينة - كلما كان بمكان مرتفع كان أبعد من الغمق[1] والوَمَد[2].

وبهاتين الصفتين، يكون البستان أطيب هواءً، وأكرم أشجارًا، وأكثر

---

(١) أرض عمقة كثيرة الأدواء وبئة.

(٢) الوَمَد: ندى يجيء فى صميم الحر من قبل البحر فيكاد يحنق الناس.

وأشهى أثمارًا، على ما تسير إلى ذلك الآية الكريمة من سورة البقرة: ﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتًا من أنفسهم كمَثَلِ جنة بِرَبوةٍ أصابها وابل فآتت أكلها ضِعفين فإن لم يُصبها وابلٌ فطلٌّ والله بما تعملون بصير﴾.

لغة الإنسان:

وكما اختلف أهل النظر حول الإنسان فى نشأته أخذًا بظاهر النص أو جنوحًا إلى مطلق الافتراض، اختلفوا كذلك فى لغته، فقال قوم: إن اللغة وحى وتوقيف[1]، وقال آخرون: إنها تواضع واصطلاح.

وقد احتج الذاهبون إلى أنها وحىٌ وتوقيف بقول الله جل ثناؤه: ﴿وعلَّم آدم الأسماء كلَّها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا عِلم لنا إلا ما علَّمتنا إنك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تُبدون وما كنتم تكتمون﴾.

فقد ذكر الله جلّ ثناؤه فى هذه الآيات أنه علَّم آدم الأسماء كلها، بمعنى أنه علمه مسمَّيات الأسماء مع أسمائها، فأراه الأجناس التى خلقها، ثم أعلمه أن هذا يسمى فرسًا، وهذا يسمى بعيرًا، وهكذا، ثم علَّمه أحوالها وما يتعلق بها من المنافع، ثم عرض سبحانه المسمَّيات على الملائكة قائلًا لهم: أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين فى زعمكم أنى أستخلف فى الأرض مفسدين سفاكين للدماء، فيرد بذلك جل ثناؤه عليهم مقررًا لهم أن فيمن يستخلفه لعمارة الأرض من الفوائد العلمية التى هى أصول الفوائد كلها ما يستأهل

---

(١) التوقيف على الشىء: النص عليه.

ادم وذريته لأجله أن يكونوا مستخلفين فى الأرض، فبيَّن لهم بذلك بعض ما أجمل من المصالح فى استخلافهم التى اشتمل عليه قوله تعالى: ﴿إنى أعلم ما لا تعلمون﴾[١].

وقال المؤثرون جانب التواضع[٢] والاصطلاح: إن اللغات كلها، من الأصوات المسموعات، كدوى الريح وقصف الرعد وخرير الماء وشحيح الحمار وصهيل الفرس ونعيق الغراب، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد. والمعروف - بشهادة العقل والاستقراء، وتتبع نطق الأطفال والأمم الراقية وغير الراقية - أن لغات العالم ترجع إلى أمهات أصلية، تولدت وتتولد عنها، وأن كل واحدة من هذه الأمهات هى المنشأ الأول لفروعها، وأنها كلها، تنشأ من جذة عليا مجهولة، هى لغة الإنسان الأول، وتلك الجذه هى الكلمات القليلة التى كان يعبر بها الإنسان الأول عن رغائبه الضئيلة، أو عن الأشياء المحيطه به.

وبعض هذه الكلمات تُقتبس من محاكاة الأصوات التى تصدُر عن الحيوان والإنسان والرياح وغير ذلك، على نحو ما تفعل الببغاء التى هى دون الإنسان فى الإدراك. وبعض هذه الكلمات مرتجل بطبيعة القوة الناطقة التى أودَعها الله الإنسان وميَّزه بها عن سائر الحيوان، وهى فيه إلهام فطرى أسمى من الإلهام المودع الحيوان الأعجم، فإننا نسمع الهرة تموء ببضعة أصوات مختلفة تظهر بها انفعالاتها ومطالبها. فصوت الاستعطاء والاستلطاف، غير صوت الغضب والزجر.

ولذلك عندما يجيش صدر الإنسان بإظهار رغبة أو رهبة، يصيح بصوت

---

(١) جار لله الزمخشرى

(٢) التواضع: الاتفاق على وضع اللفظ بإزاء معنى ليدل عليه عند الإطلاق

مصور بصورة ما، حسبما يلهمه الله تعالى، فيسمعه غيره فيفهم عنه مراده، بإضافة قرينة حال، أو إشارة كما يشاهد ذلك كثيرًا فى الأطفال عند محاولتهم النطق، فإذا وجد أنه أدى غرضه مضى يستعمل ذلك ثانيةً وثالثة فى إفهام رفقائه، فيذيع ذلك بينهم ويعرف، دون حاجة إلى قرينة.

وهكذا يفعل غيره فعله، ويقلدهما ثالث ورابع حتى تتكون اللغة الأولى الضرورية التى يعيشون فيها دون اتفاق عليها، ودون تعمُّد أو قصد إلى الاتفاق، ثم تتسع هذه اللغة بطرق النمو المعروفة، كالاشتقاق والزيادة والنقص والتحريف والتحويل من الحقيقة إلى المجاز.

أما اللغات الفرعية، فإنها تنشأ من هجرة بعض طوائف الإنسان إلى جهات متباعدة، فيدفعهم التقاطع إلى نسيان بعض الكلمات لعدم استعمالها فى وطنهم الجديد، أو يدفعهم تقاطعهم هذا إلى تحريفها على طول الزمان، وقد يرون فى وطنهم الجديد مالم يكونوا قد رأوه من أنواع الحيوان والنبات والجماد فيضطرون إلى وضع كلمات لها على الوجه المذكور آنفًا.

وهكذا تتباعد اللغات الفرعية عن الأصلية، كلما تباعد الزمان والمكان، ويزيد مدى التباعد إذا جاءوا أمما تتكلم بغير لسانهم الأصلى، فيستعيرون من لغاتهم كلمات تتمثل بعد حين فى بيئة لغتهم.

فإذا طال الأمد على أهل لغة فكثر عددهم، أو ارتقت الصفات الإنسانية فيهم، اتسعت هذه اللغة وتعدَّدت أساليب التعبير فيها فضاق حِفظ أى فرد من علمائها عن الإحاطة بها.

وبهذا يظهر أن اللغات وضعها البشر من غير سابقة اصطلاح أو اتفاق، كما يظهر أن قول من يقول بأنها وحى وتوقيف استدلالاً بالآية الشريفة، هو

قول لايُعقل منه إلا أنها - أعنى اللغة - متوقفة على إلهام من الله تعالى واهب النطق للإنسان، ومعروف أن النص إذا تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال، فالاستدلال بالآية الشريفة على أن اللغة وحىٌ وتوقيف استدلال غير صالح، وبهذا يرجَّح الرأى القائل بأن اللغة تواضع واصطلاح[1] وهو الرأى الذى تنشرح له صدور الباحثين المتدبرين.

دين الإنسان:

وكما اختلفت أهل النظر هؤلاء فى نشأة الإنسان ولغته، اختلفوا فى مدى عناية الخالق تعالى به فى دينه: هل تركه ربه سُدى غير منهىّ ولا مأمور، أو شمله بعنايته فأمره ونهاه.

يجنح الافتراضيون إلى معان كثيرة يرتادونها فى آفاق فسيحة من الخيال تتعلق بالرؤى والأحلام وعبادة الأسلاف وما إلى ذلك من الأوهام التى لا ترفع من حق ولا تضع من باطل.

وقد كتب فى هذا الباب كثير من كتّاب الغرب ومؤلفيه. فمن شاء أن يتوسع فى هذه البحوث، فإنه مستطيع الرجوع إلى مثل (الديانات فى إفريقيا السوداء)، أو (حياة الحقائق)، فقد تناول الكتابان وأمثال لهما كثيرًا هذا الموضوع تناولاً مستوعبًا.

غير أن أصحاب العقائد يؤمنون بأن الدين فى التركيب الإنسانى، متعلق بغريزة من أقوى غرائز الإنسان سلطانًا عليه، وهى غريزة حب الخضوع التى تناظر فى الفطرة غريزة حب الاستعلاء، فكما أن الإنسان، يسعده -

(١) راجع فى هذا الباب كتاب الخصائص لابن جنى، ومذكرات أستاذنا الشيخ أحمد الإسكندرى.

بحكم غريزة حب الاستعلاء - أن يستعلى، يسعده كذلك - بحكم غريزة حب الخضوع - أن يخضع.

ولما كانت غاية الإنسان منحصرة فى تجنب ما يخشاه وتطلب ما يرجوه كان كل ما يحقق له ذلك، دافعًا له إلى الخضوع لكل ما يدفع عنه الخوف ويحقق له الرجاء. ولذلك عبد كل ما يخشاه اتقاءً للضر وابتغاءً للخير، فكانت غريزة حب الخضوع فيه منشأة لدينه.

ثم إن هاهنا طريقين لإرضاء غريزة حب الخضوع فى الإنسان:

إحداهما: طريق الدين الذى ابتعث الله تعالى به رسله وأنبياءه، يرشدون الخلق إلى الله واللجأ إليه واللياذ به وابتغاء الخير عنده حين يخافون وحين يرجون.

والطريق الثانية: أن يتركوا سدى تسخرهم غرائزهم، فتسوقهم غريزة التخاضع لأناس مثلهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا فيتخذون منهم آلهة ويجعلونهم أربابًا يخضعون لهم حين يخافون وحين يرجون، وفى ذلك من الخطر على الكرامة الإنسانية ما لا يجهل موضعه إلا جاهل، ولا يذهل عن مغبته إلا ذاهل.

فالدين الذى ابتعث الله به رسله وأنبياءه، وهو - عند التحقيق - تكريم للإنسان الذى سخر له ربه ما فى السماوات وما فى الأرض، وسخره هو فى عبودية رب السماوات والأرض، وهى العبودية التى ينتهى إليها أقصى ما تبلغه حرية الأحرار.

والأصل الجامع فى هذا الباب قول الله تعالى: ﴿كان الناس أُمَّة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين

الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أُوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيًا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾.

فقد كان الناس - بحكم الآية الشريفة - متفقين على دين الإسلام، من حيث كان الإسلام دين جميع أنبياء الله ورسله، لأنه دين الفطرة، ولكن هؤلاء الناس اختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين.

ذلك أحد الرأيين فى معنى الآية.

وقالت طائفة أُخرى: إن معنى الآية أن الناس كانوا أُمة واحدة كفارًا، فبعث الله النبيين إليهم فاختلفوا عليهم.

وأيًا ما كان الأمر فى المذهبين، فإن الذى لا ريب فيه أن الله تعالى لم يخلق الناس عبثًا، ولم يتركهم سدى، فذلك هو ما تستوجبه الفطرة القويمة ويقضى به التأمل البصير: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفًا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

يعنى - جل ثناؤه - قوم وجهك لله وعد له إليه، غير ملتفت عنه يمينًا ولا شمالاً. فإن من اهتم بالشىء عقد عليه طرفه، وسدد إليه نظره، وقوم له وجهه مقبلاً به عليه.

وقد أمر تعالى بلزوم فطرة الله التى فطر الناس عليها، فإنه - سبحانه - خلقهم قابلين للتوحيد، غير نائين عنه ولا منكرين له، لكونه مجاوبًا للعقل البصير، مساوقًا للنظر الصحيح الذى لا تحجبه الأهواء، حتى لو أن الناس تُركوا لأنفسهم بغير مبعوث إليهم من قبل العناية الإلهية، لما اختاروا على دين التوحيد دينًا آخر. ومن غوى من عباد الله، فبإغواء شياطين الإنس والجن، كما يروى

ذلك رسول الله ﷺ عن ربه «كل عبادى خلقت حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم وأمروهم أن يشركوا بى غيرى»، وكذلك قوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهوِّدانه أو ينصِّرانه».

غذاء الإنسان:

وكما اختلف أهل النظر حول الإنسان فى نشأته، وفى الموطن الذى بدأ فيه أولى خطواته، وفى اللغة التى استعان بها على أن يفهم ويُفهم، وفى الدين الذى كان يلوذ به فى خوفه ورجائه - اختلفوا فى غذائه، كيف كان ومم كان؟

فالمستمسكون بحبل الله من أهل الديانات، لا يجدون من النصوص القاطعة فى هذا الباب ما يمهد لهم السبيل إلى برد اليقين، إلا ما كان من مثل حديث أبى موسى الأشعرى الذى رويناه لك آنفًا، وفيه أن الله تعالى لما أخرج آدم من الجنة، زوده من ثمارها وعلمه صنعة كل شىء.

وأما الجانحون للافتراض فإنهم لا يجدون فى هذا الباب عنتًا، وحسبهم أن يقولوا: إن غذاء الإنسان إبان خطواته الأولى على أرض الله، كان متسقًا مع طبيعة المرحلة التى كان يحيا فيها بين أسماع المخاطر وأبصارها، أبعد ما يكون عن التصنع والتكلف والتعقيد.

أهل الدين أيسر طريقًا:

وليس يرتاب ذو نظر منصف فى أن تاريخ النشأة الإنسانية، إنما هو من الغيب المحجب الذى لا سبيل إليه ليقين، بل لا سبيل إليه لظن غالب، إذ كان ذلك مما لا يبلغه الطالبون إلا من طريق نصوص لا تحتمل التأويل، ومثل هذه النصوص من البعد بمكان مكين.

الافتراض سبيل إلى المعرفة:

وغير جائز لك - ثبَّت الله على طريق الحق خطوك - أن تنكر باب الافتراض على الإطلاق، إذ كنت - بهذا - تخاطر بنفسك، وبما عسى الله تعالى أن يكون قد ذخره لك لينتفع به الناس منك فى قابل حياتك من معارف وعلوم.

إن أعظم ما كشف عنه العلم الحديث، بدأ فرضًا، وانتهى حقيقة علمية جليلة الأثر، بحيث لا يعرف أحد كيف ولا أين تنتهى بالبشرية فى قابل من الزمن قريب أو بعيد.

كان أفلاطون - تلميذ سقراط وأُستاذ أرسطو طاليس - ينظر إلى الرياضة على أنها شىء مقدس، وكان يرى قدسيتها فى حركة الكواكب والنجوم، وهى حركة دائرية، كما كان يتمثل قدسيتها أيضًا فى الموسيقى، إذ هى مؤسسة على علم الحساب. والموسيقى عنده قدسية جميلة.

وقد تبع فيثاغورس أفلاطون فى ذلك الذى كان يؤمن به، فقال هو وأتباعه على سبيل الفرض: إن الأرض كُرة، ولم يكن لقولهم هذا حجة علمية دامغة، ولا أخبر به عن الله تعالى معصوم، وإنما كانت حجتهم تقوم على ما دلهم عليه علم الحساب الفيثاغورسى وعلم الهندسة، من أن أكمل شكل فى الأشكال، هو شكل الكرة، وأن صانع هذا الكون ما كان ليصنعه إلا على أكمل شكل وأجمله.

ومن أدلتهم على ذلك الكمال والجمال أن الشمس تراءت كرة، وأن القمر تراءى كرة، وأن قبَّة السماء كرة، وأن مجرى هذه الأجرام كلها دائرة، والدائرة أجمل المسارات وأكملها.

وإذن، فالأرض كرة. لا مندوحة عن تقرير هذه القضية فى هذه الصورة

الحازمة الجازمة مهما تكن الأسباب الداعية إلى تقريرها قليلة أو ضئيلة، لأن ثمة سببًا فيه غناء وفيه كفاية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. ذلك أنها لو لم تكن كرة لكانت شاذة غير متسقة مع القوانين التى وضعها خالق الكون لكونه، والفرض أن الاتساق هو الأصل والخروج عليه شذوذ.

ولكى يختفى هذا الشذوذ الذى يُزلزل قواعد الوحدة الكونية، لابد أن تكون الأرض كرة حتى تكون كاملة وجميلة ومتسقة مع كون الله العظيم فى كماله وجماله.

كذلك كانوا يؤمنون بهذه الصورة من الخلق إيمانًا يقوم على الافتراض، فلما أشرقت شمس العلم الحديث بمنطق حديث وطرائف حديثة، تأيَّد بهذا المنطق وبتلك الطرائف ما كان قرره فلاسفة الإغريق منذ قرون عن طريق الإيمان بالجمال والكمال والإلهام.

نعم.. والإلهام بعض طرائق المعرفة أو هو نصفها، على ما يعرف ذلك من أنفسهم أصحاب الاستعدادات العليا، معرفة تقع من قلوبهم بمنزلة يقين العقائد ووضوح البديهيَّات.

ولقد قسَّم أرسطوطاليس تلميذ أفلاطون المعرفة، إلى معرفة تأتى بالتسلسل المنطقى، وإلى معرفة تأتى خطفًا وإلهامًا.

وكما يقول الأستاذ العلامة الدكتور أحمد زكى: تمضى القرون ويأتى العلم بتسلسله المنطقى فيقول، حديثًا، بما قال به الإلهام قديمًا.

أعطى كل شىء خلقه ثم هدى:

وفى حوار بين موسى وهارون عليهما السلام، وبين فرعون، سألها الطاغية

المتألهُ: «من ربُّكما يا موسى؟»، فأجابه صلوت الله عليه: «ربُّنا الذى أعطى كلَّ شىء خَلْقَهُ ثم هَدى».

يعنى أن الله تعالى أعطى كل شىء صورته وشكله الذى يطابق المنفعة المنوطة به، والمبتغاة منه، فأعطى العين الهيئة التى تطابق الإبصار، والأذن الهيئة التى توافق الاستماع، وسائر حواس الإنسان وأعضائه ما تتمكن به من أداء وظائفها التى نيطت بها، وابتغيت منها على أكمل وجه وأحسنه.

وكما تقضى قوانين الكمال والجمال الموحَّدة فى خلق الله، أعطى الشمس والقمر وسائر النجوم والكواكب وسائر النبات والحيوان ما يتمكن به من تحقيق الغاية التى أريد لها وخُلق من أجلها.

ثم كان من تمام نعمة الله جل ثناؤه على الإنسان الذى سخرَّ له ما فى السماوات وما فى الأرض وسخره هو فى عبودية رب السماوات والأرض . أن علمه كيف يرتفق بكل ما أعطاه فى نفسه وفيما سخره له مما يحيط به فى كون الله العظيم من نامٍ وغير نام.

وهذه الآية بهذه المعنى فى سورة طه، تنظر إلى الآية الأخرى فى سورة السجدة ﴿أحسنَ كلَّ شىء خلقه﴾، مهما يكن المراد من الإحسان الحسن أو الإتقان فالآيتان جميعًا تستهدفان تصوير غايتين أو تحقيق إدراكين:

أولهما: إدراك ما فى أشياء هذا الكون على اختلافها من تنظيم وتنسيق، وفى هذا دليل - أى دليل - على أنه يوجد وراء هذه الأشياء، فى مواضعها، عقل منظِّم منسِّق مدبرٌ.

وثانيهما: إدراك أن هذا النظام، وهذا النسق يجرى على أسلوب واحد، مهما اختلفت المواضع من هذا الكون، وفى هذا دليل - أى دليل - على أن العقل

المنظم المنسق المدبر فى هذا الكون، واحدا؛ على ما يقول الدكتور أحمد زكى فى كتابه «مع الله فى السماء».

وإذا كان الأستاذ العلامة قد اثرت له أستاذيته العلمية الحياد فلم يشأ أن يتعرض لفلسفة أو دين، فإننى - بحكم مهنتى - غير مستطيع ذلك الحياد، فليست لى ندحة عن أن أتخذ من هذين الإدراكين وسيلة بيِّنة المعالم، إلى تقرير أن هذا العقل المنظم المنسِّق المدبر فى هذا الكون ، إنما هو الله رب العالمين، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد.

ولئن كان الفلاسفة الأقدمون لم يُنقل عنهم أمام إحساسهم بالجمال والكمال فى كون الله العظيم قول يُؤثر فى حكمة رفيعة أو مثل شرود، لقد أُثر عن إمام الفلاسفة المسلمين حجة الإسلام الغزالى قولته الجليلة، وقد استغرقه الشعور بجلال الله فى بديع صنعته: «ليس فى الإمكان أبدع مما كان».

وقد أثارت هذه الكلمات من حوله - رحمه الله - كوامن الحقود، وأغرت به سيئات الظنون ، حتى راح بعض الغيارى على جلال الله من أهل العلم يطعنه بأنه ينسب خالق السماوات والأرض إلى العجز، إذ ليس فى إمكانه جلَّ ثناؤه أن يخلق خلقًا أكمل من هذا الخلق ولا كونًا أبدع من هذا الكون، لأن ذلك فيما توحى به العبارة المأثورة عن حجة الإسلام، غير داخل فى باب الإمكان.

ولست ترتاب - جنبَّك الله الشبهة - فى أن الأسلوب الذى تخيَّره الإمام الحجة، تعبيرًا عما تجلى له من عظمة الخالق فى الخلق، إنما هو أُسلوب أداه إليه استغراقه فى الجمال والجلال والكمال الذى تمثَّل له فى كون الله العظيم، حتى لكأنه قد كان فى غيبوبة بهذا الاستغراق فقال ما قال، بل قال ما يقوله الذين راحوا ينالون منه ويرمونه بما هو بعيد عنه لو كان قد تهيأ لهم أن يذوقوا مثل ذوقه.

وعلى أن من الواضح - أو مما ينبغى أن يكون واضحًا - أنه رحمه الله لم يُرد بعبارته هذه إلا أن هذا الكون بلغ من الجمال والكمال والإتقان المنزلة التى لا منزلة وراءها يتصورها عقل أو يرقى إليها خيال، مِصداقًا لما قرره القرآن فى أكثر من موضع من مثل قوله: ﴿صُنع الله الذى أتقن كل شىء﴾، وقوله: ﴿أحسن كلَّ شىءٍ خلقه﴾، وقوله: ﴿أعطى كل شىء خَلقه ثم هدى﴾.

فأية صورة يفترضها مُفترض - مهما كان غاليًا فى خياله - وراء الصورة الواقعة فى خَلق الله، إنما هى صورة مستحيلة الوقوع، لأنها مستحيلة التصوُّر، وإلا لوضع الله تعالى فيها كونه تحقيقًا لقوله سبحانه فيما سُقناه من الآيات الشريفة بدلا من الصورة الواقعة، ومن بدائه المعارف عند أهل المنطق وعلماء الكلام أن قدرة الله - جل ثناؤه - تتعلق بالممكن دون المستحيل، وعلى ذلك فعبارة الإمام الحجة عبارة سليمة لا غُبار عليها، إلا أن يشاء التحاسد والتحاقد وقصر النظر أن يرمى بها إلى سيئات الظنون.